التفقّه في علوم الدين

نظرة إلى فروع العلم الديني ودوافع وثمار اكتسابها

الأستاذ عرفان محمود

العلم كمال مطلوب

غير خفي أن العلم بحدّ ذاته كمال من الكمالات الإنسانية بما هو وسيلة لرفع الجهل، وهذا نقصٌ كما هو معلومٌ[1].

وما يُقال أحياناً بأنّ بعض العلم ضارّ لاينافي كونه كمالاً أيضاً لأنّ هذا القول يصدر من زاوية استخدام هذا العلم في موارد مضرّة. فالضرر ليس في العلم نفسه وبما هو رافع للجهل بل هو ناتج من استخدامه في الموارد المضرة، مثلما أن سلامة العينين ـ مثلاً ـ كمالٌ للإنسان بلا شك مع أنّ استخدامهما في النظرات المحرمة يعود بالضرر الدنيوي والأخروي على صاحبها.

بل إن العلم من الكمالات الإلهية التي تفضّل الله تبارك وتعالى على خير مخلوقاته، الإنسان، بالقدرة على اكتسابها والتحلّي بها والاغتراف من العلم الإلهي المطلق بمقدار سعته وقدرته على التحمّل، فيما العلم المطلق مختص ـ كسائر الكمالات الأخرى ـ بالله تعالى ومهما أوتي الإنسان منه فهو قليل جداً مقارنةً بالعلم المطلق للباري عزّوجلّ.

العلم والكمال المقدر للإنسان

ولكن هل هذا القول يعني أنّ الكمال المقدر للإنسان ـ في الجانب المعرفي أو ما هو أعمّ منه ـ متحقق للإنسان بأي علم اكتسبه أو اجتهد في التعمق فيه؟

الإجابة سلبية بلاشك تتضح من ملاحظة أن للإنسان ـ كنوع ـ غاية محددة من خلقِهِ يتحقق الكمال المقدر له بتحققها[2].

▣ العلم بحدّ ذاته كمال من الكمالات الإنسانية بما هو وسيلة لرفع الجهل.

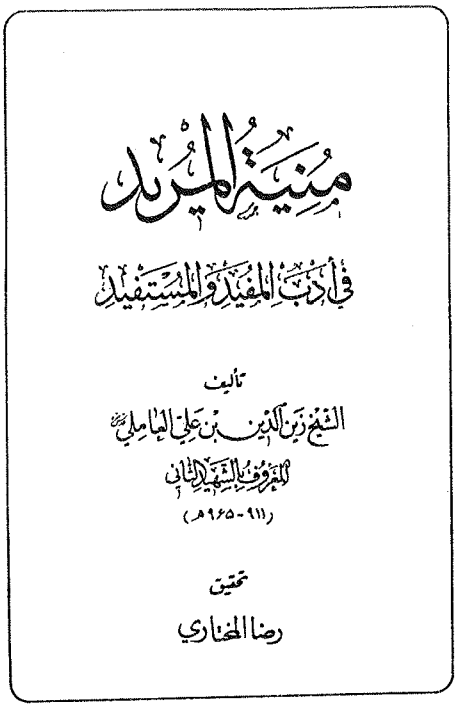

▣ العلم من الكمالات الإلهية التي تفضّل الله تبارك وتعالى على خير مخلوقاته، الإنسان، بالقدرة على اكتسابها والتحلّي بها.

فالعلم الذي يعينه على تحقق هذه الغاية هو الذي يحقق له كماله، هذا أولاً وثانياً فإن من الثابت للمتدبر في حقيقة العلم أنه وإن كان بحدِّ ذاته كمالاً، إلّا أنه ذو مراتب كثيرة متفاضلة في قربها من الكمال العلمي الإلهي المطلق وكذلك في إيصال الإنسان إلى الكمالات الأخرى. وهذا يعني أنّ على الساعي للتحلي بالكمالات الإلهية أن يراعي سلم الأولويات في اكتساب العلوم.

وهذا هو المعيار العام لتحديد الشرع للعلوم المختلفة بين واجب التعلم، بالنسبة للعلوم التي لا غنى للإنسان عنها إذا أراد حفظ نفسه عن السقوط في مهاوي الحياة البهيمية فلا يكون كالأنعام بل أضل سبيلاً، أو إذا أراد حفظ نفسه من التلف المادي مقابل الإتلاف المعنوي المتقدم؛ وبين مندوب لتعلمه، بالنسبة للعلوم التي تفتح آفاقاً أوسع أمام الإنسان لطي معارج الكمال؛ وبين مكروه، بالنسبة للعلوم التي تصرف الإنسان وتشغله عن اكتساب القسمين الأول والثاني من العلوم.

تقسيم العلم إلى دُنيوي وأخروي

وبعبارة أخرى ـ وكما يقول المولى المحقق الشيخ محمد مهدي النراقي ـ فإن:

العلم كله وإن كان كمالاً للنفس وسعادة؛ إلّا أنّ فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب

التحصيل وعدمه، فإنّ بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وأمثالها؛ مما ترجع جلُّ فائدته إلى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى، ولذا عُدّت من علوم الدنيا دون الآخرة وربما وجب تحصيل بعضها كفاية..

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الإلهي المعرف لأصول الدين، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات والعلوم التي [هي] مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة...[٣].

تقسيمه بلحاظ الدوافع

ومع تثبيت هذا التقسيم للعلوم وقبل الخوض في تفصيل الحديث عن العلوم «الأشرف مرتبة» والأشد تأثيراً في الإيصال إلى الكمال المقدر للإنسان؛ نرى من الضروري تثبيت نقطة مهمة تصدق على هذين القسمين من العلوم فيما يرتبط بتحقق الثمار المرجوة منها، وبالتحديد في إيصال الإنسان إلى كماله المقدر وغاية خلقه؛ وهي أن تحقق هذه الثمار رهينٌ ـ بدرجةٍ كبيرة ـ بالنية والدافع من تعلمها، فإذا كان إلهياً خالياً من شوائب الشرك والشهوات الأرضية بمختلف مراتبها؛ أعطى الثمار المرجوة من اكتساب تلك العلوم من أي قسميها بأفضل صورها وفي كل حين؛ والعكس صحيح أيضاً.

وقد يفسد أحياناً الدافع المادي ثمار العلوم الإلهية أيضاً فلا يحصل صاحبه من ثمارها حتى ما يوفر له المتاع الدنيوي القليل، في حين إن الدافع الإلهي التعبدي قد يجعل حتى العلوم الدنيوية وسيلة للتقرب إلى الله عزّوجلّ والفوز بما تقر به الأعين من بحر كمالاته... فمثلاً، إذا قام المسلم بتحصيل أي من العلوم الدنيوية التي لا غنى عنها لحفظ الأبدان ومعائش الناس مثل علوم الطب أو الفنون العسكرية اللازمة للدفاع عن كيان المسلمين أو تطوير وسائل الإيصال لنقل العلم الصحيح للناس وأمثال ذلك؛ نقول إذا قام بتعلمها بنية أداء الواجب الكفائي طلباً لرضا الله سبحانه وخدمة لعباده وقضاءً لحوائجهم ولأن في خدمتهم خدمة لربهم الكريم؛ فإنّ هذا الدافع الإلهي يضفي الصبغة الأخروية على هذه العلوم ويجعلها وسيلة للقرب من الله جلّ وعلا والتحلّي بكمالاته، والعكس صحيح أيضاً إذا قام بتعلم العلوم الإلهية لأغراض دنيوية، فيكون تعلمه مقدمة للمتاجرة بالدين التي ورد النهي عنها بصورةٍ مشددة في النصوص الشرعية كما هو معلوم[٤].

هذه النقطة تمثل جوهر الأوامر الشرعية فيما يرتبط باكتساب العلوم وسائر أعمال الإنسان، وهي مستفادة في خصوص طلب

العلم من أول ما نزل من الوحي الإلهي أي مطلع سورة العلق المباركة حيث أمر الله عزّ وجلّ أن تكون القراءة ﴿باسم ربّك﴾ وقد فصل الإمام العارف السيد الخميني رضوان الله عليه الحديث عن دلالات هذه الآية الكريمة في حديثه لطلبة العلوم الدينية عن تفسير مطلع سورة العلق. وفي خطابات أخرى[٥].

▣ إن العلم وإن كان كمالاً للنفس بقسميه الدنيوي والأخروي، إلّا أن فيه أولويات تحددها الغاية من خلق الإنسان، فعليه اكتساب العلوم التي تعينه على تحقيق غاية خلقه والوصول إلى الكمال المقدر له.

▣ إن الدافع لاكتساب العلم ـ بقسميه الدنيوي والأخروي ـ هو عامل الحصول على ثماره في إيصال الإنسان للكمال.

▣ إذا كان الدافع إلهياً جعل حتى العلوم الدنيوية التي يجب تعلمها كفائياً وسيلة للتقرب إلى الله، وإذا كان مادياً جعل حتى العلوم الدينية وسيلة لانحطاط الإنسان وتهاويه في أسر الدنيا والإخلاد للأرض.

أقسام العلم الديني

بعد تثبيت هذه النقطة نرجع إلى تفصيل الحديث عن القسم الثاني من العلوم التي يسميها النراقي رحمة الله عليه «علوم الآخرة»، وقد تقدم في ما نقلناه عنه تصنيفها إلى ثلاثة فروع، والتصنيف نفسه نجده عند علماء آخرين كما سنرى لاحقاً وهو مستنبط في الواقع من نصوص شرعية كثيرة قرآناً وسنّة كما سنرى لاحقاً أيضاً.

والفروع الثلاثة تشكل بمجموعها ـ وليس بكل منها مستقلاً ـ العلم الإلهي الواجب أو المندوب إلى تعلمه، وبعبارة أخرى فإن الإنسان يحتاج إليها جميعاً ـ بدرجة أو أخرى تتناسب مع أوضاعه الخاصة ـ للوصول إلى كماله المقدر له ليكون عالماً ربّانياً أو متعلماً على سبيل نجاة. وفقدان أي قسم منها، أو عدم الحصول منه على مقدار ما يحتاج إليه بحسب ظروفه الخاصة، يصده عن الوصول إلى هدفه التكاملي المنشود؛ لذا ينبغي

□ العلم الديني هو أشرف العلوم ويجب تعلّمه بفروعه الثلاثة: العقائد، الأخلاق، الفقه؛ بملاحظة خصوصيات المتعلّم وما يحتاجه منه في حركته التكاملية أو في مهمته التبليغية.

للمسلم الأخذ منها جميعاً وبالمقدار الذي يحتاج إليه حسب أوضاعه وظروفه ومهامه الخاصة به.

وهذه نقطة أخرى مهمة وجديرة بالاهتمام في هذا الباب، ومع تأكيدها ننتقل إلى الحديث ـ بشيءٍ من التفصيل ـ عن كلٍّ من الفروع الثلاثة:

العقائد والحقائق الإيمانية

يصرح الفقهاء وفي بداية رسائلهم العملية عادةً ـ خاصةً عند متأخريهم ـ بوجوب العلم بأصول الدين، ووجوب تعلمها على المكلف وبما يولد عنده اليقين بها، بمعنى أن المطلوب من تعلمها هو حصول الاطمئنان بالحقائق الإيمانية الأساسية، فحصوله هو المعيار المحدد لإنجاز هذا التكليف الشرعي. ولذلك نلاحظ الإمام الخميني رضوان الله عليه يجيب عن استفتاء عمّا إذا كان تقليد أهل الخبرة كافياً في تعلم أصول الدين أم يشترط أن يحقق الإنسان بنفسه؛ فيقول:

المعيار في الأصول الاعتقادية هو العلم واليقين فإذا حصل اعتماداً على قولِ شخصٍ آخر كفى[٦].

المهم في العقائد حصول اليقين

وأهمية تعلم علم أصول الدين واضحة لأن حصول اليقين بها يمثل القاعدة الأساسية التي يستند إليها تحرك الإنسان والوقود المحرك له للعمل بمقتضاها.

فما لم يعرف الإنسان ربه وأنه أحد صمد لا شريك له فلن يعبده ولن يتوجّه لعبادته، وما لم يعرف حجته على عباده المبلغ عنه أوامره ـ نبياً كان أو إماماً ـ فلن يعبده العبادة الصحيحة التي ارتضاها الله لعباده بعنوانها العام الذي يشمل جميع حركات الإنسان

وسكناته لأنه لن يحصل على كيفية العبادة الصحيحة من غير الحجة؛ وما لم يعرف المعاد وحتميته وحتمية الحساب على ما قدم في دنياه، فلن يرتدع عن تضييع عمره فيما يعود بالخسران والندامة في النشأة الأخرى.

▣ المهم في علم العقائد وتعلمها الحصول على اليقين والاطمئنان لأنها تشكل قاعدة العمل والتحرك التكاملي.

الرجوع للعقل والشرع في كليات العقائد

وخير سبيل للحصول على العلم واليقين المطلوب بشأن الأصول العقائدية هو الاستناد إلى الفطرة السليمة والعقل السليم لمعرفة الأسس العامة للتوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد، ثم اللجوء إلى ينابيع الوحي لمعرفة تفصيلاتها الصادرة عن خالق الإنسان والعارف بما تسعه وتطيقه قواه الإدراكية التي أودعها فيه. كما أنّ ناقل الوحي الإلهي ومبلغه *صلى الله عليه وآله* ومفسري ما بلّغ للعالمين من أهل بيته *عليهم السلام* هم أصحاب أصح العقول وأقواها وأصفاها القادرون على إدراك ما لا يدركه غيرهم من حقائق الإيمان والعقائد الحقة.

▣ خير سبيل للحصول على العلم واليقين المطلوب، الاستناد إلى الفطرة السليمة والعقل السليم لمعرفة الأسس العامة للتوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد، ثم اللجوء إلى ينابيع الوحي لمعرفة تفصيلاتها.

وأما أصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع والعقل؛ وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع ونفس الأمر فلا يرد حكمه، ولولاه لما عُرف الشرع ولذا ورد أنه:

▣ أصول العقائد يجب أخذها عيناً من الشرع والعقل؛ وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر.

«ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل».

فهما متعاضدان متظاهران وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج.

وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنّما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإن كل عقل ليس تامّاً، وكل ما يُنسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه، كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة، فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعاناً وإن لم نعرف مأخذه العقلي[٧].

مميزات البيان الشرعي للعقائد

إذن فإن أخذ تفصيلات العقائد من كتاب الله عزّوجلّ ومن أحاديث الرسول الأكرم وأئمة أهل بيته صلوات الله وسلامه عليه وعليهم هو أضمن سبيل للوصول إلى حقائق الإيمان الحقة وإيصالها وتبليغها للآخرين وبالبيان الصادر من هذه الينابيع وهو البيان المنسجم مع الفطرة والعقل السليم.

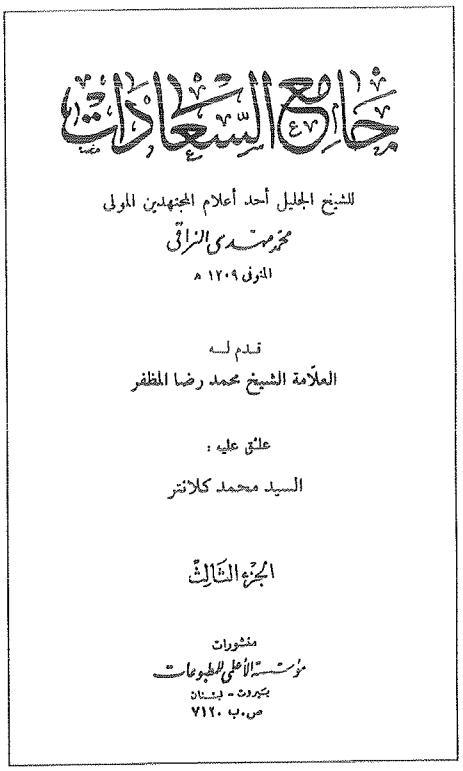
جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى
محمد مهدي النراقي
المتوفى ١٢٠٩ هـ

قدم له
العلامة الشيخ محمد رضا المظفر

علق عليه:
السيد محمد كلانتر

الجزء الثالث

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

وهذا البيان هو الذي يوصل الحقائق العقائدية إلى القلوب ويرسخها فيها ويجعلها مؤثرة في سلوك الإنسان دافعة له للتحرك بمقتضاها خاصةً إذا لاحظنا أن هذا البيان صادر عن الكتاب المنزل أساساً لهداية العالمين، وعن قادة البشرية المكلفين أساساً بهدايتهم إلى الله تبارك وتعالى، لذلك كان بيانهم منصباً لتحقيق هذه المهمة وليس مجرد إقناع العقل ـ كما هو حال بيان غيرهم للعقائد ـ بها.

فهو بيانٌ مقنع للعقل مستجيب للفطرة نافذ للقلب دافع للعمل بمقتضى الحقائق الإيمانية التي يحملها؛ يفتح أمام الإنسان آفاق الاستثمار العملي لما يحصل عليه من حقائق الإيمان ويفجر فيه معارف الفطرة السليمة المتطلعة إلى الله تعالى وهو الكمال المطلق.

حقائق الإيمان في الشرع

يُضاف إلى ذلك أن هذا البيان يحصن الإنسان من الوقوع في الاشتباهات التي تقترن بأعمال العقل، ولا ضمانة من عدم وقوعها خاصةً في المباحث الدقيقة، بصورةٍ مستقلة؛ ويحصنه من الحرمان من الحقائق الدقيقة التي لا يصلها العقل مستقلاً، وكما يقول العارف الإمام الخميني:

أجل.. تضمن القرآن حقائق عرفانية كبرى لم يسمع بها فلاسفة اليونان، وعجزت عن الوصول إليها كتب أرسطو وأفلاطون اللذين يُعتبران من أكبر فلاسفة تلك العصور، بل وحتى فلاسفة الإسلام الذين تربوا في مهد القرآن الكريم ونهلوا من منهله؛ فقد أوّلوا الآيات التي تحدثت صراحةً عن وجود الحياة عند جميع موجودات الكون.

أما عرفاء الإسلام الذين يأخذون [الحقائق الإيمانية] من القرآن فقد استنبطوا معارفهم من الإسلام واقتبسوا من القرآن الكريم؛ لأن الحقائق العرفانية التي يبينها غير موجودة ـ على هذا النحو والبيان ـ في أي كتابٍ آخر، وهذه بذاتها معجزة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله العارف بمبدأ الوحي وإلى الدرجة التي تمكنه صلى الله عليه وآله من أن يكشف أسرار الوجود...[٨].

البيان الشرعي يعرف ويهدي

إن الميزة الأهم لتعليمات ينابيع الوحي الإلهي بشأن الأصول العقائدية هي أنها لا تكتفي بالهداية إلى الحق تبارك وتعالى والتعرف به بل تأخذ بيد الإنسان وتوصله إليه ولا تكتفي بتعريفه بالحقائق العقائدية بل تعينه أيضاً على العمل بمقتضاها وتجسيد ما تدعو له عملياً:

وكما نعرف فإنّ لغة دعوة الأنبياء عليهم السلام وأولياء الله الخلص سلام الله عليهم هي ليست لغة الفلسفة والطريقة الفلسفية المتعارفة، بل إنهم يتعاملون مع أرواح الناس وقلوبهم ويوصلون نتائج البراهين إلى قلوب عباد الله ويهدونهم من أعماق الأرواح والقلوب.

ويمكنك القول إن الفلاسفة وأهل البراهين يزيدون من الحجب فيما يسعى الأنبياء عليهم السلام وأصحاب القلوب الحية إلى رفع الحجب، ولهذا فإنّ الذين يربيهم الأنبياء والأولياء هم المؤمنون والعشاق لله تعالى والذين يربون ويتتلمذون عند أولئك (الفلاسفة) هم أصحاب البرهان الذين

يحبون الكلام وإثارة علامات الاستفهام ولا يتعاملون مع القلوب والأرواح ...[٩].

البيان الفلسفي، والبيان النبوي

الطرق الفلسفية والكلامية تزيد من الحجب الصادة عن سبيل الله لأنّها تشغل الإنسان عن العمل بالجدل وتلهيه باللذائذ التي يحصل عليها من الاستغراقات العقلية في التجريدات النظرية، على العكس من المناهج العقائدية النبوية فإنها تزيل الحجب بعرض العقائد بالصورة الدافعة إلى العمل.

فإذا تخلصت الفلسفة من هذه الحالة انسجمت مع البيان الإلهي وجندت العقل لخدمة الهدف كما يشير إلى ذلك العارف الإمام الخميني قدس سره في تتمة المقطع السابق:

إن ما قلتُه آنفاً ليس معناه أن لا تطلع على الفلسفة وأن تُعرض عن العلوم الاستدلالية لأن ذلك خيانة للعقل والاستدلال والفلسفة، بل يعني أنّ هذه يجب أن تشكل طريقاً للوصول للهدف الرئيسي وأن لا تحجبك عن الوصول للهدف والمراد والمحبوب ...[١٠].

ولكن حتى لو تخلصت الفلسفة من الحالة التجريدية والانشغال بالالتذاذ العقلي فإنها تبقى منهجاً بعيداً في الحصول على العقائد الحقة المؤثرة في سلوك الإنسان إذا لجأ إليها الإنسان بصورةٍ مستقلة واكتفى بها عن البيان الشرعي، بل إنها تصعّب على الإنسان ما سهله الله ويسره بالبيان الصادر من ينابيع الوحي في المجال العقائدي، كما ينبه لذلك السيد ابن طاووس:

واعلم إني تركتُ التصنيف في علم الكلام إلّا مقدمة كتبتها ارتجالاً في الأصول سميتها شفاء العقول من داء الفضول لأنني رأيتُ طريق المعرفة به بعيدة عن أهل الإسلام وأن الله جلّ جلاله ورسوله وخاصته صلى الله عليه وآله والأنبياء قبله قد قنعوا من الأهم بدون ذلك التطويل ورضوا بما لابد منه من الدليل، فسرتُ وراءهم على ذلك السبيل وعرفتُ أن هذه المقالات يحتاج إليها مَن يلي المناظرات والمجادلات ...[١١].

حاجة المبلّغ لما يدافع به عن العقائد

أجل قد يحتاج المبلغ المتولي لمهمة الدفاع عن العقائد الدينية إلى التعمق في علمَي الكلام والفلسفة لكي يكون قادراً على مواجهة شبهات الملحدين أو المغالين أو المنحرفين عقائدياً، وقادراً على تحصين المسلمين من التأثر بها. وفي هذه الحالة يكون تعلم وتعليم ذلك للمتأهلين له واجباً كفائياً.

▣ يحتاج المبلغ المتولي لمهمة الدفاع عن العقائد الدينية إلى التعمق في علمَي الكلام والفلسفة لكي يكون قادراً على مواجهة شبهات الملحدين أو المغالين أو المنحرفين عقائدياً، وقادراً على تحصين المسلمين من التأثر بها.

وقد استند العلّامة الطباطبائي إلى هذا الواجب في تبرير تدريسه العلوم الفلسفية ونقد الفلسفة المادية في حوزة قم؛ في رسالته الشفهية لزعيم *الحوزة العلمية* يومذاك آية الله العظمى السيد البروجردي *رضوان الله عليهما* الذي كان يعترض على تدريس الفلسفة في حوزة قم وفي دروس عامة، بل حرّم ذلك...

إذ ردّ عليه العلّامة الطباطبائي بأنّ القيام بذلك ضروري لحفظ عقائد الدين من موجة التشكيكات والشبهات والانحرافات العقائدية التي حملتها لبلدان العالم الإسلامي الهجمة التغريبية في بدايات هذا القرن، وكان استناد العلّامة لهذه النقطة سبباً في إعراض السيد البروجردي عن اعتراضه السابق. جاء في خطاب العلّامة لآية الله البروجردي:

لقد درسنا نحن أيضاً العلوم المتعارفة مثل الفقه والأصول ونحن أيضاً قادرون على تدريسها لا نقلّ في ذلك عن الآخرين، لكنني جئتُ من تبريز لقم فقط وفقط من أجل تصحيح عقائد طلبة العلوم الدينية استناداً إلى معايير الحق ومن أجل تأهيلهم لمواجهة عقائد الماديين الباطلة.

في ذلك الزمان الذي كان فيه سماحة آية الله [السيد البروجردي] يذهب مع عدد محدود [من الطلبة الأفاضل] وخفية لدرس المرحوم جهانكيرخان [يشير إلى محدودية تدريس الفلسفة يومذاك]؛ كان طلبة العلوم الدينية وعامة الناس ذوي عقائد نقية فلم تكن ثمة حاجة لتشكيل دروس علنية لكتاب الأسفار [يقصد كتاب الأسفار الأربعة لصدر المتألهين الشيرازي وهو من المتون الفلسفية المعمقة].

أما اليوم فإنّ كل طالب علم يدخل بوابة حوزة قم يحمل معه حقيبة مليئة بالإشكالات والشبهات العقائدية، فيجب الاستجابة لاحتياجاتهم وإعدادهم على ضوء أسس عقائدية سليمة

لمكافحة العقائد المادية وأتباعها وتعليمهم الفلسفة الإسلامية الصحيحة...[١٢].

علم الأخلاق وأهميته

الفرع الثاني من العلوم الإلهية التي يجب تعلمها هو علم الأخلاق ومعرفة الأخلاق الإلهية الفاضلة والاجتهاد في السعي للتحلي بها؛ ومعرفة الأخلاق الشيطانية والصفات الرذيلة ومجاهدة النفس بهدف التخلي عنها وتعرّف حدِّ الاعتدال المأمور بالالتزام به في الأخلاق العملية وقيادة النفس للسير عليه، ومعرفة حدّي الإفراط والتفريط لاجتناب الوقوع فيها.

وقد أكدت وجوب تعلمه الكثير من النصوص الشرعية وبينت أهميته بل اعتبرت ثمرته العملية هي الهدف من بعثة الأنبياء، كما يشير لذلك الحديث النبوي الشهير: «*بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق*».

عينية وجوب تعلمه

واستناداً لوفرة هذه النصوص الشرعية وصحتها سنداً وصراحتها دلالةً فقد صرح العلماء بالوجوب العيني لتعلم علم الأخلاق، فنرى الشيخ النراقي يقول:

وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها إجمالاً إلّا أنها في كيفية الأخذ مختلفة، فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد، على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق[١٣].

ويقول المولى الفيض الكاشاني:

... يجب على كل مكلف أن يتفقّه في الدين ويتعلم ما أنزل الله جلّ جلاله على نبيه سيد المرسلين صلوات الله عليه وآله أجمعين من معرفة الله سبحانه ومقربيه واليوم الآخر ومعرفة مكارم الأخلاق لتُكتسب، ومساويها لتُجتنب...[١٤].

ويقول في تعليقه على الحديث النبوي «*إنما العلم ثلاثة؛ آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل*»:

قيل: إنّ الأول إشارة إلى العلوم الاعتقادية من معرفة الله وصفاته ومقربيه واليوم الآخر، والثاني إشارة إلى علم آفات النفس وتعديل قواها وتهذيب الأخلاق والثالث إشارة إلى علم الشرائع ومسائل الحلال والحرام.

أقول: العلوم الدينية منحصرة في هذه الثلاثة وبها جاءت الشرائع والرسل، وهي المسماة بالعلم والحكمة والفقه، والذكر والهدى والنور وما يؤدي مؤداها، وأما غير هذه الثلاثة فليس من العلم والحكمة في شيء وليس في تحصيله كمال أخروي أصلاً. وجميع مقاصد الكتاب والسنّة وأخبار أهل البيت عليهم السلام يرجع إلى هذه الثلاثة... وكلها فريضة على كل مكلف بقدر سعته وطاقته...

وكل مَن حصل على مرتبة منها واستعد لأخرى فقد وجبت عليه تلك الأخرى، وهكذا ولا ينتهي إلّا بانتهاء طاقته إلّا أنه يجب تقديم الأهم فالأهم،

ووجوب الأولين [أي العقائد والأخلاق] وما يخص الطالب من الأخير [أي ما يحتاجه من علم الفقه] عيني والباقي كفائي...[١٥].

وقريب من هذا الرأي في تفسير الحديث الشريف يتبناه الإمام الخميني في حاجة الإنسان لهذه العلوم الثلاثة[١٦].

▣ تعلّم علم الأخلاق واجب عيني عام لارتباطه المباشر بحفظ النفس من المهلكات الروحية وإيصالها إلى الفضائل، فمن الضروري أن لا تخلو منه لا الحوزات العلمية ولا النشاطات التبليغية.

صرخة تألّم من الشهيد الثاني

ونلاحظ في عرض الفقيه الشهير الشهيد الثاني رضوان الله عليه لوجوب تعلم علم الأخلاق صرخة ألم تعبّر عن قلة الاهتمام به ـ كفريضة وواجب ـ على الرغم من شدة اهتمام النصوص الشرعية به وبتوضيح وجوب تعلمه:

«وللعالم في تقصيره في العمل بعد أخذه بظواهر الشريعة واستعماله ما دوّنه الفقهاء من الصلاة والصيام والدعاء وتلاوة القرآن وغيرها من العبادات ضروب أخر [من التقصير] فإن الأعمال الواجبة عليه فضلاً عن غير الواجبة [يقصد هنا المندوبة أو المستحبة أو المحرّمة] غير منحصرة فيما ذكر [في الأبواب الفقهية المتعارفة]، بل من الخارج عن الأبواب التي رتبها الفقهاء ما هو أهم ومعرفته أوجب والمطالبة به والمناقشة عليه [يوم القيامة] أعظم؛ وهو تطهير النفس عن الرذائل الخلقية من الكبر والرياء والحسد والحقد وغيرها من الرذائل المهلكات مما هو مقرر في علومٍ تختص به وحراسة اللسان عن الغيبة والنميمة وكلام ذي اللسانين وذكر عيوب المسلمين وغيرها.

وكذا القول في سائر الجوارح فإن لها أحكاماً تخصها وذنوباً مقررة في محلها لابد لكل أحد من تعلمها وامتثال حكمها، وهي تكليفات لا توجد في كتاب البيع والإجارات وغيرها من كتب الفقه، بل لابد من الرجوع فيها إلى علماء الحقيقة [علماء الأخلاق] وكتبهم المدوّنة في ذلك....

خطورة الانشغال عن الأخلاق بالفقه المصطلح

وما أعظم اغترار العالم بالله تعالى في رضاه بالعلوم الرسمية وإغفاله عن إصلاح نفسه وإرضاء ربه تبارك وتعالى!

وغرور مَن هذا شأنه يظهر لك من حيث العلم ومن حيث العمل، أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وإن مثاله مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه [دون العمل به]، لا بل مثاله مَن به علة... وهو مشرف على الهلاك محتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم دواء الحيض والاستحاضة وتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجلٌ لا يحيض ولا يستحيض، ولكنه يقول ربما يقع علة الحيض أو الاستحاضة لامرأةٍ وتسألني عنه، وذلك غاية الغرور حيث ترك تعلم الدواء النافع لعلته مع استعماله ويشتغل بما ذكرناه.

كذلك المتفقّه المسكين قد تسلط عليه اتباع الشهوات والإخلاد إلى الأرض والحسد والرياء والغضب والبغضاء والعُجب بالأعمال التي يظنها من الصالحات، ولو فتش عن باطنها وجدها من المعاصي الواضحات.

فليلتفت إلى قوله صلى الله عليه وآله:

«أدنى الرياء الشرك».

وإلى قوله صلى الله عليه وآله:

«لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال ذرة من الكبر».

وإلى قوله صلى الله عليه وآله:

«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وإلى قوله صلى الله عليه وآله:

«حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل».

إلى غير ذلك من الأخبار المروية في أبواب هذه المهلكات.

وكذلك يترك استعمال الدواء لسائر المهلكات الباطنة وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي، فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم النحو وتصريف الكلمات والمنطق وبحث الدلالات وفقه الحيض والاستحاضات والسلم والإجارات واللعان والجراحات والدعاوي والبينات والقصاص والديات، ولا يحتاج إلى شيءٍ من ذلك في مدة عمره إلّا نادراً، وإن احتاج إليه أو احتاج إليه غيره فهو من فروض الكفايات وغفل مع ذلك عن العلوم التي هي فرض عيني بإجماع المسلمين، فغاية تلك العلوم إذا قصد بها وجه الله تعالى العظيم وثوابه الجسيم أنها فرض كفاية ومرتبة فرض الكفاية بعد تحصيل فرض العين...[١٧].

وجوب تعلم الأخلاق عينياً

ونلاحظ في قول الشهيد الثاني تصريحه بإجماع علماء المسلمين على القول بوجوب تعلم علم الأخلاق مقدمة للعمل به؛ لارتباطه بمهلكات لا مناص للإنسان عن اجتنابها كما تشير لذلك الأحاديث النبوية التي استشهد بها. كما نلاحظ في قوله وفي أقوال العلماء الآخرين التي نقلنا نماذج منها آنفاً تأكيدهم أن هذا الواجب عينيّ على كل مسلم بعموم مسائله في حين أن علم الفقه ليس كذلك بل إن تعلم بعضه عينيّ على كل مسلم - وهي المسائل التي تخصه حسب تعبير الفيض الكاشاني - وبعضه الآخر واجبٌ كفائيّ.

ومن هذه النقطة انطلق الشهيد الثاني في تركيزه المشدد على الاهتمام بهذا العلم السلوكي التربوي، وانطلق غيره من العلماء الربّانيين في رأيهم بضرورة تدريس علم الأخلاق في *الحوزات العلمية* ودعواتهم المشددة إلى طلبتها بشأن الاهتمام به على الصعيد الفردي وعلى الصعيد الاجتماعي والعمل التبليغي.

دروس الأخلاق في الحوزات العلمية

وقد شهد تاريخ *الحوزات العلمية* ظهور حوزات تدريسية متخصصة بهذا العلم، لعل من أبرزها في التاريخ الحديث حوزة آية الله السيد علي التستري المعاصر للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري والجالس مجلسه في التدريس الفقهي بعد وفاته، وكان الشيخ الأنصاري يصطحب معه تلامذته لحضور درس السيد التستري كما هو معروف ويعطل لأجله درسه الفقهي يوماً في الأسبوع.

ثم ظهرت بعدها حوزةٌ أكثر تخصصاً في علم الأخلاق وأوسع نطاقاً وأدق تنظيماً وهي حوزة المولى حسين قلي الأنصاري الهمداني وهو تلميذ للتستري في الأخلاق وللأنصاري في الفقه والأصول وللمولى السبزواري في الحكمة والفلسفة، وقد خرّجت حوزة المولى الهمداني المئات من أساتذة الأخلاق من المجتهدين الكبار، ثم خلفتها *حوزات* أخلاقية أبرزها حوزة آية الله السيد علي القاضي التي تخرج منها كثير من العلماء الأعلام أمثال العلّامة الطباطبائي وأخيه وآيات الله الشيخ محمد تقي بهجت والشيخ الوحيد الخراساني والسيد المرعشي النجفي وغيرهم[١٨].

كما كان لعدد من كبار علماء *الحوزة العلمية* في قم المقدسة دروس أخلاقية مهمة، بعضها عام يحضره طلبة العلوم الدينية وغيرهم وبعضها خاص بطلبة العلوم الدينية، منها الدرس الأخلاقي لآية الله الشيخ الشاه آبادي في طهران وقم والدرس الأخلاقي للإمام الخميني في المدرسة الفيضية والدروس الأخلاقية للعلّامة الطباطبائي وغيرها.

العنصر الأخلاقي في المهمة التبليغية

وواضحٌ أنّه مثلما يجب أن لا تخلو *الحوزات العلمية* من تدريس هذا العلم التربوي المهم، كذلك يجب أن لا تخلو مجالس المبلغين ونشاطاتهم التعليمية والتبليغية الخاصة والعامة من إيصال حقائق هذا العلم للآخرين بمختلف مستوياتهم وباللغة والمقدار المتناسب مع خصوصياتهم.

وكما تقدمت الإشارة لذلك في حديث المولى النراقي، فإن علم الأخلاق يجب أخذه من نصوص الشريعة بالدرجة الأولى ومما استنبطه الربّانيون الذين أوتوا علمه من علماء الأخلاق؛ أو علماء الحقيقة حسب تعبير الشهيد الثاني. فهو يرتبط بخفايا النفس وملكاتها الباطنية وخالقها هو العارف بها وبما يصلحها فلابد من أخذ علم تهذيبها من مصادر وحيه *عزوجل* والرجوع في ذلك إلى علماء الحقيقة الذين تربوا على إضاءات أنارتهم بها تلك المصادر النقية وعرفوا عياناً الدواء الشرعي لكل داءٍ من أمراض النفس.

أخذ الأخلاق من الشريعة وعلماء الحقيقة

وقد دوّن بعضهم مؤلفات قيّمة في هذا العلم شرحوا فيها استناداً إلى النصوص الشرعية قوى النفس وكيفية التعامل معها وتهذيبها وتزكيتها، وجنود العقل وسبل استثمارها في الإصلاح ومجاهدة النفس، وجنود الجهل وسبل التغلب عليها، وغير ذلك مما تحدثت عنه النصوص الشرعية، وهي بمجموعها تشكل مناهج للعمل مستنبطة ـ كما هو الحال مع الأحكام الشرعية في الأبواب الفقهية المتعارفة ـ من الكتاب الكريم والسنّة الشريفة بمعناها الأوسع الذي يشمل سنة الأئمة المعصومين *صلوات الله عليهم أجمعين*.

ويضاف إلى ذلك أنّ مجموعة من المسائل الأخلاقية مذكورة بصورةٍ متفرقة في بعض الأبواب الفقهية المتعارفة مثل أبواب المكاسب المحرّمة من المباحث الفقهية الاستدلالية خاصةً عند متأخري الفقهاء من مدرسة الشيخ الأنصاري، ولكنها لا تغني عن الرجوع للكتب الأخلاقية المتخصصة.

علم الفقه والأحكام

وهو القسم الثالث من أقسام العلم الإلهي وقد صرح الفقهاء بوجوب تعلمه ـ كما هو معروف ـ ولكن بالمقدار الذي يحتاجه كل مكلف:

إن سائر الأفعال التي أوجبها الله تعالى كالوضوء والغسل والصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب على الخلق طلب العلم بها؛ وأما الأحكام الشرعية الوضعية كحكم الشك وعدد الركعات وحكم مَن

زاد على سجدةٍ سهواً وأحكام البيع والميراث والديات والحدود والقصاص، والاقتضائية التي هي تحريم بعض الأفعال كحرمة الغيبة وشرب الخمر وغير ذلك فإنّما يجب طلب العلم بها عند الحاجة إليها[١٩].

عرض جميع الشؤون على الشرع

وأهمية هذا القسم واضحة، والمطلوب فيه أن يدرك المرء وجدانياً حقيقة أنّ لله تبارك وتعالى في كل واقعة وفي كل شأن من شؤون الإنسان الفردية والاجتماعية حكماً، يجب أن يتعبد المرء لربه بالعمل به. وثمرة إدراكه لهذه الحقيقة أن يعرض جميع شؤونه على الشريعة ويتعرف على حكمها في كل شأن ويعمل به، وهذا الأمر أعم من دائرة الحلال والواجب والمحرم؛ فيشمل ما يصطلح عليه بالمستحبات والمكروهات فيستحب تعلم أحكامها فيما يجب تعلم أحكام الدائرة الأولى بحسب ما يقتضيه الأمر، فعلى التاجر مثلاً أن يتعلم أحكام التجارة وعلى المعلم أن يتعلم الأحكام الشرعية المرتبطة بالتعليم وكذلك الحال مع الكاسب والمزارع والطبيب ورب الأسرة.

الفقه مفتاح الوصول إلى حقائق الشريعة

واضحٌ أنّ تعلم ما يحتاجه الإنسان من أحكام الشرع هو بوابة التعبد لله تبارك وتعالى ومفتاح التحقق بحقائق الشريعة والوصول إلى بواطنها وتحقق الغاية من الخلق، وطي المراتب التكاملية التي لا طريق إليها إلّا بالعمل بأحكام الشرع وظواهر الشريعة؛ كما أنّ من الواضح أن عدم تعلّم الإنسان لما يحتاجه منها يفتح عليه أبواب السقوط في المعاصي من حيث لا يدري، فيقطع عليه طريق طيّ تلك المراتب التكاملية ويحرمه من السعادات الدنيوية والأخروية المترتبة عليها.

خصوصية المبلّغ في التعلّم الفقهي

وبالطبع فإن طالب العلوم الدينية يحتاج إلى الإحاطة بمقدار أكبر من الأحكام الشرعية بحكم متطلبات مهمته العلمية والتبليغية، ولكن يجب عدم الإفراط في ذلك إلى درجةٍ تصده عن تعلم العلوم الأخرى المهمة، كما تقدم في قول الشهيد الثاني رحمه الله. وهذا أصل عام يشمل عموم نشاطه العلمي. والعلوم الأخرى التي يحتاجها، فيأخذ منها ما يحتاجه وما يشتمل على ثمرة عملية وليس مجرد الثمار النظرية الصرفة، وهذا الأصل يشمل أيضاً الجميع حتى المتخصصين.

نلاحظ مثلاً أن الإمام الخميني رضوان الله عليه يوصي طلبة العلوم الدينية ـ وضمن حديثه عن العلوم التي يحتاجها المجتهد الديني

لاستنباط الأحكام الشرعية ـ بعدم التعمق في مباحث علم الأصول التي لا يحتاجها في علم الفقه:

...كما أن كثرة اشتغال بعض الطلبة بالأصول والنظر إليه استقلالاً وتوهم أنه علم برأسه وتحصيله كمال النفس، وصرف العمر في المباحث غير المحتاج إليها في الفقه لهذا التوهم في طرف التفريط. والعذر بأن الاشتغال بتلك المباحث يوجب تشييد الذهن والأنس بدقائق الفن، غير وجيه.

فالعاقل الضنين بنقد عمره لابد [له] من ترك صرفه فيما لا يعني وبذل جهده فيما هو محتاج إليه في معاشه ومعاده وهو نفس مسائل علم الفقه الذي هو قانون المعاش والمعاد وطريق الوصول إلى قرب الرب بعد العلم بالمعارف.

فطالب العلم والسعادة لابد وأن يشتغل بعلم الأصول بمقدار ما هو محتاج إليه؛ وهو ما يتوقف عليه الاستنباط ويترك فضول مباحثه أو يقلله وصرف الهم والوقت في مباحث الفقه خصوصاً فيما يحتاج إليه في عمله ليلاً أو نهاراً...(٢٠).

▣ تعلّم علم الفقه واجب عام فالعمل به مفتاح الوصول إلى حقائق الشريعة، ولكن يجب أن يكون تعلمه بالمقدار الذي يحتاجه كل فرد حسب خصوصياته.

▣ إنّ طالب العلوم الدينية يحتاج إلى الإحاطة بمقدار أكبر من الأحكام الشرعية بحكم متطلبات مهمته العلمية والتبليغية، على أن لا يفرّط في ذلك إلى درجةٍ تصده عن تعلّم العلوم الأخرى المهمة.

أهمية «التفقّه في الدين» وشموليته

وثمة قضية مهمة أكدتها النصوص الشرعية فيما يرتبط بتعلم مختلف فروع العلم الإلهي، وهي السعي للحصول على حالة *التفقّه في الدين* التي اعتبرتها من النعم الإلهية الجليلة التي يخص الله تبارك وتعالى مَن أراد له الخير

من عباده كما في الحديث النبوي: «*مَن أراد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده*»(٢١).

ولذلك فإن المنافق الذي قتل في نفسه أهلية تلقي هذه النعمة الجليلة، محروم منها كما يصرح بذلك قوله صلى الله عليه وآله: «*خصلتان لا تكون في منافق: حسن سمت وفقه في الدين*»(٢٢).

وثمرة هذه المنّة العظيمة الوصول إلى مراتب المتقين الذين يتولى الله أمر تربيتهم ولا يكلهم إلى أنفسهم كما يشير لذلك قوله صلى الله عليه وآله: «*مَن تفقه في دين الله كفاه همه ورزقه من حيث لا يحتسب*»(٢٣).

التفقّه عماد الدين

بل إن الأحاديث الشريفة تعتبر التفقّه في الدين أساس بناء الشخصية الإيمانية كما في الحديث النبوي: «*ما عُبد الله بشيءٍ أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد ولكل شيءٍ عماد وعماد هذا الدين الفقه*»(٢٤)، وهو مفتاح تزكية الأعمال ومن شروط قبولها الفوز بالمقامات السامية كما يصرح بذلك الإمام الصادق عليه السلام في المروي عنه: «*عليكم بالتفقّه في دين الله تعالى ولا تكونوا أعراباً، فإنه من لم يتفقّه في دين الله لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة ولم يزكّ له عملاً*»(٢٥).

وحصانة من الضلال

وإشارة الإمام إلى أنّ فقدان التفقه في الدين يُدخل الإنسان في زمرة «الأعراب» تعني أنه يجعل صاحبه مستعداً للسقوط في مهاوي الكفر والنفاق: ﴿*الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله*﴾.

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية:

... *والأعرابي في التعارف صار اسماً للمنسوب إلى سكان البادية... يبيّن الله حال سكان البادية وأنهم أشد كفراً ونفاقاً لأنهم ـ لبعدهم عن المدنية والحضارة وحرمانهم من بركات الإنسانية من العلم والأدب ـ أقسى وأجفى، فهم أجدر وأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصيلة والأحكام الشرعية من فرائض وسنن وحلال وحرام...*(٢٦).

وطريق للكمال

التفقّه في الدين يؤهل الإنسان للوصول إلى الكمال الحقيقي في شؤونه الدنيوية والأخروية كما يشير إلى ذلك قول الإمام الباقر عليه السلام: «*الكمال كل الكمال التفقّه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة*»(٢٧)، كما أنه يحصنه من الضلال إذ يجهزه بما يغنيه عن الرجوع إلى الأئمة المضلّين.

يقول الإمام الصادق: «*لا خير فيمن لا يتفقّه من أصحابنا، يا بشير إن الرجل منهم إذا لم يستغن*

بفقهه احتاج إليهم [يعني علماء الضلال] فإذا احتاج إليهم أدخلوه في باب ضلالتهم وهو لا يعلم»[٢٨]، لأنه فاقد للتفقّه في الدين الذي يعرفه بضلالاتهم.

التفقّه أخص من التعلم وهو ثمرته

الفقه لغة هو الفهم: «فقهت الكلام إذا فهمته...» كما يقول الشيخ الطريحي[٢٩] فيما يعتبره الراغب ـ ويظهر أن رأيه أقرب للاستخدام الشرعي لهذه المفردة ـ أخص من العلم لأنه ثمرة له: «الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم، وقال [تعالى]: ﴿*فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً...*﴾. والفقه العمل بأحكام الشريعة، يُقال: فقهُ الرجل فقاهة، إذا صار فقيهاً... وتفقّه إذا طلبه فتخصص به قال: ﴿*ليتفقهوا في الدين*﴾[٣٠].

التفقّه هو البصيرة في الدين

يعني التفقّه ـ بمعناه الشامل لفروع العلم الديني ـ البصيرة في الدين حيث إن المستفاد من معناه اللغوي أنّه تعمقٌ في فهم الدين بوسيلة العلم ـ سواءٌ كان إلهامياً أم كسبياً ـ ومثل هذا الفهم التخصصي يكسب صاحبه البصيرة بأمر الدين ومعرفة روحه وذوقه. أما تخصيصه بعلم الفقه المعروف فهو تخصيص عرفي مستحدث ـ على ما يبدو ـ ناتج من كون الأحكام الشرعية أقرب ما يُعرف من الدين، في حين إن الدين يشمل إضافة إلى الفقه المعروف علوم المعارف العقائدية والأخلاق كما تقدم. يقول الشيخ البهائي قدس سره:

ليس المراد بالفقه في قوله صلى الله عليه وآله: بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً، الفقه بمعنى الفهم، فإنه لا يناسب المقام ولا العلم بالأحكام الشرعية العملية عن أدلتها التفصيلية فإنه معنىً مستحدث، بل المراد به البصيرة في أمر الدين، والفقه أكثر ما يأتي في الحديث بهذا المعنى، والفقيه هو صاحب هذه البصيرة...

وفي كلام بعض الأعلام: إن اسم الفقه في العصر الأول إنما كان يطلق على علم الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدة الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدّة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم...﴾[٣١].

□ يجب أن يكون تعلم العلم الإلهي بفروعه الثلاثة، مقترناً بالسعي للحصول على حالة التفقه في الدين التي تعني البصيرة فيه.

فقد جعل العلة الغائية من الفقه الإنذار والتخويف، ومعلومٌ أنّ ذلك لا يترتب إلّا على هذه المعارف لا على معرفة فروع الطلاق والمساقاة والسلم وأمثال ذلك[٣٢].

▣ التفقّه في الدين يجب أن يؤدّي إلى إيجاد التقوى والخشية والمحبة لله عزّ وجلّ، وحفظ مسيرة الإنسان على الصراط المستقيم والنجاة من الضلال والانخداع بدعوات المضلّين.

▣ التفقّه هو موهبة إلهية بالدرجة الأولى فيجب طلبها من الله عزّ وجلّ وقرن الدعاء لذلك بالسعي الكسبي لها، من خلال التأهل لتلقيها بتطهير النفس وتزكيتها.

التفقّه أثمر التقوى والسير إلى الله

والرأي نفسه يذهب إليه الشهيد الثاني قدس سره فيقول:

إن مجرد تعلم هذه المسائل المدونة ليس هو الفقه عند الله تعالى، وإنما الفقه عند الله تعالى بإدراك جلالته وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع والحمل على التقوى ومعرفة الصفات المخوفة [الأخلاق الذميمة] فيجتنبها، والمحمودة [الأخلاق الفاضلة] فيرتكبها، ويستشعر الخوف ويستثير الحزن كما نبّه الله تعالى عليه في كتابه بقول: ﴿فلولا نفر...﴾.

والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم المدوّن [علم الفقه المعروف]، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب، وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق إلى الله تعالى وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى..[٣٣].

ويقول العلّامة الطباطبائي في تفسير آية الإنذار التي ورد فيها الأمر بالتفقّه في الدين:

ومعنى الآية: لا يجوز لمؤمني البلاد أن

يخرجوا إلى الجهاد جميعاً، فهلا نفر وخرج إلى النبي صلى الله عليه وآله طائفةٌ من كل فرقةٍ من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لأنفسهم ولينذروا ـ بنشر معارف الدين وذكر آثار المخالفة لأصوله وفروعه ـ قومهم إذا رجعت هذه الطائفة إليهم لعلهم يحذرون ويتقون.

ومن هنا يظهر أولاً أن المراد بالتفقّه تفهم جميع المعارف الدينية من أصول وفروع لا خصوص الأحكام العملية وهو الفقه المصطلح عليه عند المتشرعة، والدليل عليه قوله: ﴿لينذروا قومهم﴾، فإن ذلك أمرٌ إنما يتم بالتفقّه في جميع الدين وهو ظاهر[٣٤].

ثم يعرض رضوان الله عليه إحدى الروايات الشريفة المفسرة للآية ويعقب عليها بالقول:

وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن الأئمة عليهم السلام، وهو مما يدل على أن المراد بالتفقّه في الآية أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم[٣٥].

حفظ استقامة مسيرة الإنسان

هذا فيما يرتبط بشمول الأمر بالتفقّه في الدين لجميع أقسام علومه الثلاثة من معارفه العقائدية وحقائقه الأخلاقية وأحكامه الشرعية، والمستفاد من الأحاديث الشريفة المتقدمة وغيرها مثل قول الإمام الصادق عليه السلام: *«لوددتُ أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا»*[٣٦] أنه يعني التعمق في فهم هذه العلوم بما يجعل المؤمن قادراً على الحصول على ثمار هذه العلوم العملية، كما يشير إلى ذلك قول الراغب الأصفهاني. وهذه الثمرة هي البصيرة بالدين وهي ضمانة حفظ مسيرة الإنسان على الصراط المستقيم فإن: *«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلّا بعداً»*[٣٧] كما في حديث الإمام الصادق عليه السلام.

سبيل الفوز بنعمة التفقّه

أما بالنسبة لسبيل الحصول على التفقّه في الدين، فالمستفاد من النصوص الشرعية المتقدمة وغيرها أنها هبة وعطية إلهية خاصة بالدرجة الأولى؛ لأنّ

مَن أراد الله به خيراً فقّهه في الدين....

فالحصول عليها يكون بالدرجة الأولى بالصدق في طلبها من الله عزّوجلّ لا بمجرد الكسب العلمي، بل إن بعض أهل المعرفة يصرح بأنها من العطايا الإلهامية:

«التفقّه في الدين من علوم القلب لا من علوم الكسب، إذ ليس كل مَن يكتسب العلم يتفقّه كما قال تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه﴾، والأكنة هي الغشاوات الطبيعية والحجب النفسانية، فمَن أراد التفقّه فلينفر في سبيل الله وليسلك طريق التزكية والتصفية...»[٣٨].

وبناءً على هذا يكون سبيل الحصول على التفقّه في الدين، هو تعلم العلوم الإلهية

والتعمق بها مقروناً بالطلب من الله أن يـرزقه نوال ثمارها والتفقّه فيها والتـأهل للـحصول عليها بالتزكية والتهذيب للنفس لكي تـصبح وعاءً مناسباً لهذه النعمة الإلهية الجليلة. يقول الشيخ البهائي رضوان الله عليه في تتمة قوله السابق في تفسير معنى التفقّه:

ثم هذه البصيرة إما موهبية وهي التي دعا بها النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين علي عليه السلام حين أرسله إلى اليمن بقوله: «اللهم فقهه في الدين» أو كسبية وهي التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال لولده الحسن عليه السلام: وتفقّه يا بني في الدين...[٣٩].

خلاصة البحث ونتائجه

يمكن إجمال القضايا الرئيسة المستفادة من هذا البحث، والنتائج المترتبة عليها في النقاط التالية:

(١) أن العلم وإن كان كمالاً للنفس بقسميه الدنيوي والأخروي، إلّا أن فيه أولويات تحددها الغاية من خلق الإنسان، فعليه اكتساب العلوم التي تعينه على تحقيق غاية خلقه والوصول إلى الكمال المقدر له، وهذا الأصل يشمل الجميع.

(٢) إن الدافع لاكتساب العلم ـ بقسميه الدنيوي والأخروي ـ هو عامل الحصول على ثماره في إيصال الإنسان للكمال، فإذا كان إلهياً جعل حتى العلوم الدنيوية التي يجب تعلمها كفائياً وسيلة للتقرب إلى الله، وإذا كان مادياً جعل حتى العلوم الدينية وسيلة لانحطاط الإنسان وتهاويه في أسر الدنيا والإخلاد للأرض.

(٣) العلم الديني هو أشرف العلوم ويجب تعلمه بفروعه الثلاثة، بملاحظة خصوصيات المتعلم وما يحتاجه منه في حركته التكاملية أو في مهمته التبليغية، والواجب أخذها من العقل والشرع باستثناء الفقه فهو تعبدي لايجوز إدخال العقل كمشرّع فيه.

(٤) المهم في علم العقائد وتعلمها الحصول على اليقين والاطمئنان لأنها تشكل قاعدة العمل والتحرك التكاملي، ولذلك فهو أشرف العلوم. وخير سبيل للحصول على ذلك هو الركون إلى العقل وبراهينه في معرفة كلياته والرجوع إلى البيان القرآني والنبوي في معرفة تفصيلاته والانطلاق منه بالدرجة الأولى؛ لأنه بيان لا يقتصر على التعليم العقلي المجرد بل ينفذ إلى أعماق القلب ويرسخ حقائق الإيمان فيه ويهدي الإنسان للعمل؛ إضافةً إلى أن فيه ما ليس في غيره من حقائق الإيمان. وللمبلغ الديني خصوصية في تعلم ما يحتاجه من العلوم الكلامية والفلسفية لمواجهة الشبهات العقائدية.

(٥) تعلّم علم الأخلاق واجب عيني عام لارتباطه المباشر بحفظ النفس من المهلكات الروحية وإيصالها إلى الفضائل، فمن الضروري أن لا تخلو منه لا *الحوزات العلمية* ولا النشاطات التبليغية، ويجب أخذه من الشريعة ومن علماء الحقيقة الربّانيين. كما يجب أن لا ننشغل بالفقه المتعارف عن هذا العلم المهم لأن مثل هذا الانشغال يمثل نوعاً خطيراً من الغرور يصد الإنسان عن الوصول إلى الكمال المقدر له.

(٦) تعلّم علم الفقه واجب عام فالعمل به مفتاح الوصول إلى حقائق الشريعة، ولكن يجب أن يكون تعلمه بالمقدار الذي يحتاجه كل فرد حسب خصوصياته، وحاجة المبلغ أو طالب العلوم الدينية أكثر بحكم مهمته التبليغية وما تقتضيه من الإجابة عن أسئلة مخاطبيه، وبحكم مهمته العلمية، والتخصصية في العلوم الدينية، ولكن يلزم في كل حال عدم الانشغال في العلوم المقدماتية ـ كالأصول وغيرها ـ وخاصةً في المباحث التي لا ترتبط مباشرة بعمله ونشاطه العلمي الفقهي.

(٧) وثمة قضية مهمة ترتبط بلزوم أن يكون تعلم العلم الإلهي بفروعه الثلاثة، مقترناً بالسعي للحصول على حالة التفقه في الدين التي تعني البصيرة فيه، وبما يؤدي إلى الحصول على ثمار العلم في إيجاد التقوى والخشية والمحبة لله عزّ وجلّ وحفظ مسيرة الإنسان على الصراط المستقيم والنجاة من الضلال والانخداع بدعوات المضلين.

وهذا التفقّه هو موهبة إلهية بالدرجة الأولى فيجب طلبها من الله عزّ وجلّ وقرن الدعاء لذلك بالسعي الكسبي لها، من خلال التأهل لتلقيها بتطهير النفس وتزكيتها لكي تكون وعاءً صالحاً للحصول على هذه النعمة الخاصة والاستفادة من التدبر في العلوم الإلهية. رزقنا الله جميعاً ذلك.

الهوامش

(١) راجع ـ مثلاً ـ الدليل العقلي الذي أورده الشهيد الثاني على هذه الحقيقة في: منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ص ٣٩ ـ ٤٠ طبعة قم المقدسة، إعداد أحمد الحسيني.

(٢) راجع: تفسير العلّامة الطباطبائي للآية الثالثة من سورة الأعلى، في تفسير الميزان.

(٣) جامع السعادات، ج ١، ص ١١٧ من الطبعة النجفية.

(٤) لاحظ في هذه النقطة مباحث الإخلاص والنية من كتب الأخلاق، ـ مثلاً ـ منية المريد: ٤١ ومابعدها.

(٥) طبع ملحقاً بمحاضراته في تفسير سورة الحمد المباركة في بعض طبعاتها، وراجع أيضاً صحيفة

النور ج ٣، ص ٦٤، ج ٦، ص ١١، ج ٨ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤، وغيرها من الطبعة الأولى باللغة الفارسية.

(٦) استفتاءات، ج ١، ص ٧ طبعة مركز النشر التابع لجماعة المدرسين في حوزة قم المقدسة.

(٧) جامع السعادات، ج ١، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٨) مقطع من رسالة تربوية كتبها الإمام لنجله السيد أحمد الخميني بتاريخ ٤ /رجب /١٤٠٢.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) المصدر نفسه

(١١) بحار الأنوار ج ١٠٧، ص ٤٣، وراجع المزيد من التوضيحات في كتاب السيد علي بن طاووس: كشف المحجة لثمرة المهجة.

(١٢) كتاب «مهرتابان» بالفارسية، ص ٦٢ تأليف آية الله السيد محمد حسين الطهراني طبعة قم انتشارات باقر العلوم.

(١٣) جامع السعادات ج ١، ص ١١٧.

(١٤) الأصول الأصيلة للفيض الكاشاني، ص ١٤٧ طبعة دار إحياء الإحياء ـ قم المقدسة وراجع شرحه لكتاب الكافي المسمى بالوافي ج ١، ص ٢٧ من الطبعة الثانية.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) راجع كتابه «الأربعون حديثاً»، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ من الترجمة العربية للسيد محمد الغروي طبعة مؤسسة الكتاب الإسلامي، قم المقدسة شرحه للحديث ٢٤.

(١٧) منية المريد: ٥٧ ـ ٥٨.

(١٨) راجع دراسة «من خصائص المدرسة السلوكية للفقيه الهمداني» المنشورة في مجلة الفكر الإسلامي القمية، العدد الثامن من شوال ١٤١٥.

(١٩) مجمع البحرين للشيخ الطريحي: ٥٢٤ من الطبعة القديمة.

(٢٠) رسالة الاجتهاد والتقليد المطبوعة ضمن كتاب الرسائل للإمام الخميني ج ٢، ص ٩٧ ـ ٩٨ طبعة مؤسسة إسماعيليان ـ قم المقدسة.

(٢١) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء ج ١، ص ١٣.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٢٦) تفسير الميزان ج ٩، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ والآية ٩٧ من سورة التوبة.

(٢٧) أصول الكافي، ج ١ كتاب فضل العلم باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، الحديث الرابع.

(٢٨) المصدر نفسه، الحديث السادس.

(٢٩) مجمع البحرين، ص ٥٢٤.

(٣٠) معجم مفردات القرآن الكريم: ٣٩٨ طبعة قم المصورة عن الطبعة المصرية.

(٣١) التوبة: ١٢٢.

(٣٢) شرح الأربعين حديثاً للشيخ البهائي، ص ٧٢ ـ ٧٣، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

(٣٣) منية المريد، ص ٥٩.

(٣٤) تفسير الميزان ج ٩، ص ٤٠٤.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٨.

(٣٦) المحجة البيضاء ج ١، ص ٢٨.

(٣٧) أصول الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم باب مَن عمل بغير علم، الحديث الأول.

(٣٨) تفسير القرآن العظيم لابن عربي، ج ١، ص ٥١٥.

(٣٩) شرح الأربعين حديثاً، ص ٧٢.